الفصل الأول

سؤالٌ لا مفرَّ منه

لا توجد عقيدة في الإيمان المسيحي تُثير جدلًا أكثر ما تُثيره عقيدة التعيين المُسبَق؛ ففي أروقة كلِّيَّات اللاهوت، والآن أيضًا على الإنترنت، يُظهر الناس متعةً وحشيَّةً وافتتانًا متأصلاً بهذه العقيدة. فقد أجَّجتْ هذه العقيدةُ مناقشاتٍ عدَّة في منتصف الليل، وأشعلت نقاشات محتدمة على وسائل التواصل الاجتماعيّ.

ولا يقتصر الأمر على انقسام الناس انقسامًا حادًّا من جهة آرائهم حول التعيين المُسبَق، بل هم أيضًا منقسمون بشدَّة حول الكيفيَّة التي ينبغي التعامل بها مع هذه العقيدة. فبعضهم مقتنعٌ بأنَّ هذه العقيدة،

شـأنها شـأن الدِّيـن والسياسـة، مـن الأمـور الشـائكة التـي لا ينبغـي مناقشـتها عَلَنًـا. ينظـر هـؤلاء إلى التعيين المُسـبَق علـى أنَّـه مـن الموضوعـات التـي تـؤول إلـى جـدلٍ رديءٍ ومباحثـاتٍ عقيمـة، ويعتقـدون أنَّـه لا يعـود بـأيِّ نفـعٍ مـن جهـةِ البنـاء الروحـيّ. بينمـا يعتقد آخـرون أنَّ لعقيـدةِ التعييـن المُسـبَق أهمِّيَّـةً جوهريَّـة فـي تكميل رؤيتنـا لعلاقتنا بـالله والخـلاص، ويحسـبون تجاهُلَ هـذه العقيـدة، أو التقليل مـن أهمِّيَّتهـا علـى أيِّ نحـوٍ إهمـالًا شـرِّيرًا.

شـدَّدَ مارتن لوثر على المكانة المركَزيَّة للتعيين المُسـبَق وأهمِّيَّـة تعليمـه. وأطلـق عليـه (*core ecclesia*) أي «قلـب الكنيسـة». وبينمـا كان لوثـر يميـل أحيانًـا إلـى المبالغـة والمغـالاة، فذلـك لا ينطبـق علـى تصريحـه هنـا. لا توجـد عقيـدة أخـرى تُظهـر بهـذا الوضـوحِ اعتمادَنـا الكلِّـيَّ علـى نعمـة الله ورحمتـه، أكثـر ممَّـا تفعله عقيـدة التعيين المُسـبَق.

كما لا توجد عقيدةٌ أخرى أكثر تعزيةً لنا في معركة الإيمان الشخصيَّة من عقيدة الاختيار.

إنَّ جميع قدِّيسي التاريخ الذين آمنوا بأنَّ التعيين المُسبَق ينتمي إلى قلب فهمنا للمسيحيَّة – مثل أغسطينوس، ولوثر، وجون كالفن، وجوناثان إدواردز – آمنوا بالقدْر ذاته بأنَّه لا بدَّ من الحذر الشديد في التعامل مع عقيدة التعيين المُسبَق، إذ يسهل تحريفها، وإساءة فهمها على نحوٍ خَطِر. ويمكن أن يقودَ هذا الفهمُ الخاطئُ الناسَ إلى نظرةٍ مشوَّهةٍ عن الله على نحوٍ يكاد يُظهِره شيطانيًّا.

ثمَّة أمورٌ كثيرةٌ مرهونةٌ بكيفيَّة فهمنا للتعيين المُسبَق، ولا بدَّ أن نكون حسَّاسين جدًّا وحَذِرين في تعامُلِنا مع هذه العقيدة. إنَّها مُهمَّةٌ جدًّا في فَهْمِنا لشخصِ الله ونعمته، وفهمِ خلاصنا، ومع ذلك فهي قضيَّة شائكة،

وتسبَّبتْ في أنَّ أناسًا كثيرين لحقَ بهم الضرر إذ لم يكونوا حَذِرين كفايةً في فهمها.

ومن الناحية التاريخيَّة، فإنَّ كلَّ طائفةٍ أو كنيسة، ممَّن لديها إقرارُ إيمانٍ أو بيانُ عقيدة، قد طوَّرتْ شكلًا ما من عقيدةِ التعيين المُسبَق. فلا يمكننا أن نقولَ مثلًا إنَّ الكنيسة المشيخيَّة تؤمن بالتعيين المُسبَق والكنيسة الميثوديَّة لا تؤمن بها، أو نقول إنَّ الكنيسة الأسقفيَّة تؤمن بالتعيين المُسبَق، في حين لا تؤمنُ الكنيسة الكاثوليكيَّة به. فكلُّ كنيسةٍ وكلُّ مسيحيٍّ لديه شكلٌ ما من عقيدة التعيين المُسبَق؛ لأنَّ الكتاب المقدَّس ينصُّ على هذه العقيدة. ولابدَّ لأيَّةِ جماعةٍ في الكنيسة أو أيِّ فردٍ مسيحيّ، ممَّن يأخذون ما جاء في العهد الجديد على مَحمَلِ الجِدّ، أن يصارعوا عاجلًا أو آجلًا مع هذه العقيدة.

في الواقع، لم يخترع أغسطينوس أو لوثر أو كالفن مصطلحَ **التعيين المُسبَق**، بل هو موجودٌ في العهد الجديد نفسه، لذا فهو ليس مقصورًا على حركةٍ معيَّنةٍ في تاريخ الكنيسة بعد العصر الرسوليّ، بل يشير هذا المصطلحُ إلى مفهومٍ كتابيٍّ، وكلُّ مَن يؤمن بسُلطةِ الكتاب المقدَّس عليه أن يُدرك أنَّه لا بدَّ أن يكون لديه بعض الفهم لعقيدة التعيين المُسبَق لكي يكون خاضعًا للكلمة الرسوليَّة.

افترضْ للحظة أنَّنا الآن في القرن الأوَّل الميلاديّ، وأنَّك عضوٌ في المجتمع المسيحيّ. إنَّك تشتاق إلى كلمة من المسيح، إلى تعليمٍ ذي سلطان، وتعرف أنَّ الرسول الرئيسيَّ المُرسَل إلى الأمم هو شاوُل الطرسوسيّ. وقد وصلَ للتوِّ خبرٌ بأن خادمًا متجوِّلًا ظهرَ في أفسس حاملًا رسالةً من الرسول بولس وهي موجَّهة إلى جميع

المسيحيِّين. وها قد عُقِد اجتماعٌ خاصٌّ لقراءة الرسالة بصوتٍ مسموع، وأنت تسمع الرسالة للمرَّة الأولى.

لم يسبقْ لك أن تجادلْتَ حول التعيين المُسبَق، ولم تشتركْ قطُّ في مناقشةٍ لاهوتيَّة. أنت مجرَّدُ مسيحيٍّ جديدٍ في أفسس، وتسمع الآن التحية التالية: «**بُولُسُ، رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ بِمَشِيئَةِ اللهِ، إِلَى الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ فِي أَفَسُسَ، وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ**» (أفسس ١: ١-٢). ثمَّ يبدأ نصُّ الرسالة: «**مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ...**» (الآيتان ٣ و٤).

تُعلِن أُولى عباراتُ نصِّ الرسالة أنَّ الله اختارَك قبل تأسيس العالم. هل أثارَ ذلك انتباهك؟ لم يُضِف

بولس هذه العبارة لتكونَ حاشيةً في نهاية رسالته، بل قفز إليها مباشرةً من البداية. وتكمِل الرسالة فتقول: «**كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ، لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ**» (الآيات ٤-٦). في الآية ١١، يقول بولس: «**الَّذِي فِيهِ أَيْضًا نِلْنَا نَصِيبًا، مُعَيَّنِينَ سَابِقًا حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ**».

فمن السطور الأولى في الرسالة، يغوص بولس الرسول في أعماقِ غنى عقيدة التعيين المُسبَق. بل إنَّه يجعلها أمرًا مركَزيًّا في تعاليمه. لا يشير مصطلح التعيين المُسبَق إلى مسارات النجوم، أو إشراف الله العامّ، أو عنايته بالكون، أو تسييره للقوانين الطبيعيَّة،

بل يتحدَّث الرسول بولس هنا بشأن الخلاص – خلاصٍ مُعيَّنٍ سابقًا، والذي بموجبه، منذ تأسيس العالم، اختارَ الله المؤمنين ليخلصوا.

ماذا علينا أن نفعل بهذا؟ إذا أرَدْنا أن ننموَ في معرفتنا بالمسيح، فعلينا أن نفهمَ تعاليمَ الكتاب المقدَّس عن التعيين المُسبَق. ربَّما لا يُعجبنا الأمر في البداية، ولكنْ مع الدراسة المتأنِّية والاهتمام بشهادةِ الكتاب المقدَّس، يمكننا أن نتذوَّقَ حلاوةَ العقيدة وسموَّها ونختبرها باعتبارها مصدرَ تعزيةٍ كبيرةٍ لنفوسنا.